

العربية إنما ازدهرت وانشرت في ظل حضارة الإسلام

بقلم الأستاذ خليل العزبي

(الأردن)

وما الذي حمل اللغة العربية خارج نطاق الاماكن التي كانت تقطنها القبائل العربية ؟ حتى وصلت الى اواسط الهند وتخوم الصين شرقا والى المحيط الاطلسي وسهول فرنسا واواسط ايطاليا شمالا وغربا .

لاشك ان العرب قبل الاسلام لم يفعلوا ذلك وان هذا الامتداد للغة العربية انما كان بفضل الاسلام ، فمنذ ان بدأت الدعوة الاسلامية بالانتشار سارت معها اللغة العربية باعتبارها لغة كتاب الاسلام وهو القرآن الكريم .

ففي داخل الجزيرة العربية وحد الاسلام العرب على لغة واحدة هي اللغة التي انزل فيها القرآن وهي لغة الشمال او لغة العدنانيين ، وبعد ان حقق الاسلام الوحدة الفكرية والوحدة السياسية للجزيرة العربية اصبحت لهجة قريش هي اللغة الرسمية فيها وبدأت تتلاشى اللهجات الاخرى المختلفة ولم يبق منها سوى ما تناقله الدارسون والرواة من شذرات قليلة نقلوها كأمثلة على اختلاف هذه اللهجات او اللغات كما كانوا يسمونها .

اما خطر تغلب اللغات الاجنبية على بعض ارجاء الجزيرة كالحبشية والفارسية والرومية فقد زال بقيام دولة الاسلام القوية التي حفظت الجزيرة العربية قاعدة اسلامية عربية واخرجت كافة القوى التي يمكن ان يأتي

المتتبع لتاريخ العرب يرى ان اللغة العربية قبل الاسلام كانت محصورة في الجزيرة العربية وما يليها من بعض المناطق مثل مشارف الشام والعراق في المناطق التي كانت تسيطر عليها دولتا الفساسنة والمانذرة .

وحتى في داخل الجزيرة نفسها فلم تكن السيادة تامة للسان عربي واحد بل كان في الجزيرة العربية لسانان هما لغة التحطانيين ولغة العدنانيين وكان البون بينهما شاسعا حتى ذهب أحد ائمة اللغة العربية وهو أبو عمرو بن العلاء الى رفض اعتبار اللغة الحبشيرية لغة عربية (1) .

كما ان سيادة اللغة العربية في الجزيرة العربية كانت مهددة كذلك بغزو خارجي .

فنفوذ الحبشة في اليمن وجنوب الجزيرة العربية كان من المحتمل ان يؤدي الى انتشار اللغة الحبشية في تلك المناطق لو استمر نفوذ الحبشة السياسي فيها . وكذلك الامر بالنسبة للشمال فننفوذ الفرس والروم السياسي كان لابد ان يؤدي الى سيادة ثقافتهم وبالتالي لغاتهم على مناطق نفوذهم التي كانت تتوسع شيئا فشيئا قبل مجيء الاسلام .

فما الذي حال دون انقسام اللغة العربية في داخل الجزيرة الى لغات ؟ وما الذي حال دون تغلغل النفوذ الثقافي واللغوي للاتوام المجاورة داخل الجزيرة العربية؟

(1) تاريخ الادب العربي لاحمد حسن الزيات ص 14 .

أوروبا وبابوات روما الى جعل اللغة العربية اللغة الاولى في بلاطهم ونشاطهم الثقافي .

اما تأثير اللغة العربية على انتشار الاسلام وفرض انه لو لم تكن اللغة العربية هي لغة القرآن لما انتشر ذلك الانتشار فرغم ان هذا الفرض يوحى بسا للغة العربية من خصائص الجمال والجازبية والمرونة الا ان الواقع لا يؤيد هذا الفرض وذلك ان انتشار الدين اي دين في أم الارض لم يقتصر يوما بلغة هذا الدين فالبوذية والمسيحية والاسلام وهي أكثر اديان العالم اتباعا واتباع هذه الديانات لا تتكلم أكثريتها لغة الدين الاصلية بل انه لا يتكلم لغة الانجيل الاصلية (وهي السريانية) أحد من اتباع المسيحية .

والفضل الاول لانتشار اي دين انما هو في أمرين اثنين أولا طبيعة تعاليم هذا الدين كتجاوبها مع حاجات الانسان وبساطتها وسهولة فهمها ، والثاني نشاط دعاة الدين والطريقة التي يعرضونه فيها على الامم الاخرى.

وقد تهيأ للدين الاسلامي من بساطة عقيدة وتجاوبها مع حاجات الانسان سواء كان انتهاؤه لمجتمع متطور كالمجتمعات الرومانية والفارسية أو لمجتمع بدائي كشموع افريقيا ، كما تهيأ لهذا الدين دعاة مخلصون هم الرعيل الاول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلاميذهم الذين تجردوا للدعوة واحسنوا حملها وعرضها وكانوا القدوة الحسنة والمثال العملي لتعاليم الاسلام وما فيها من مبادئ العدل والمساواة والانسانية .

ومما يؤيد ان طبيعة الاسلام ونشاط دعائه هما عملا انتشاره ان اغلبيية المسلمين في العصر الحاضر ليسوا من الشعوب التي تكلمت اللغة العربية اصلا أو انها تكلمتها في حقبة من تاريخها ثم تركتها وعادت الى لغاتها القومية بعد تصاعد الاتجاه القومي والاقليمي في كثير من الاقطار الاسلامية وخاصة في القرنين الاخيرين.

* * *

ان الوعي الاسلامي والوازع الديني سواء في بلدنا او في اي قطر اسلامي يتأثران بمؤثرات شتى ومختلفة قد تكون اقوى من تأثير اللغة فالتغيرات الاجتماعية والمشاكل الاقتصادية والسياسية والمدنية الغربية المروجة وما تمارسه من ضغط اجتماعي واخلاقي وسياسي عن طريق وسائل اعلامها والقوى الدائرة في فلكها تشد الناس نحو نمط معين من الحياة وتروج

منها اي خطر سياسي أو ثقافي من جزيرة العرب . أما حمل اللغة العربية خارج حدودها القديمة فقد تولاه الفتح الاسلامي الذي اكتسح جزءا ضخما من قارات العالم القديم الثلاث في فترة قصيرة من الزمن واصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية للدولة الاسلامية في عهد الراشدين والامويين والعباسيين فاقبلت شعوب الاقطار المفتوحة على تعلم اللغة العربية .

أولا — انها ضرورة حتمية للدين الاسلامي الذي أصبح دين أكثرية تلك الشعوب لما راوه من بساطته وجماله وسماحة اهله .

وثانيا — انها اللغة الرسمية التي لا بد منها لكل من يريد أن يكون له نصيب من الادارة أو السلطة .

وثالثا — انها تتيح لمن يتعلمها أن ينتقل بين أرجاء العالم الاسلامي في آسيا وافريقيا وأوروبا دون أن يحتاج الى معرفة اللغات الاقليمية التي كانت سائدة قبل انتشار الاسلام .

هذا تأثير الاسلام على اللغة العربية من حيث امتدادها الجغرافي غير أن ثمة تأثيرا آخر للاسلام على لغة الضاد وهو تحويلها من لغة بدائية تكاد تنحصر مفرداتها بحياة البادية وما فيها من حيوان وطبيعة وأدوات حياة بدائية الى لغة حضارة وعلم تستوعب مطالب الحضارة المعقدة المختلفة وتعبر عن كافة تضايها ومشاكلها وذلك ان الاسلام اقام في الاقطار المفتوحة مع جزيرة العرب حضارة جديدة لها مميزات وخصائصها الذاتية مستفيدة من الحضارات القديمة التي كانت تسود مناطق العالم الاسلامي فورثت حضارة الاسلام حضارات الهنود والفرس والرومان واليونان والمصريين والبابليين والاشوريين والفينيقيين وشعوب شمال افريقية وقوط اسبانيا وصهر جميع هذه الحضارات وضم اشتات تلك المجتمعات بحضارة جديدة يمثلها المجتمع الاسلامي ، وكان لا بد لهذه الحضارة الجديدة من لغة تعبر عن محتواها فكانت اللغة العربية وما كان للغة العربية أن تكون كذلك لولا الاسلام .

وبذلك كانت اللغة العربية في المجتمع الاسلامي لغة الدين وما تفرع عنه من دراسات فقهية وعقائدية وقانونية وهي لغة العلوم الطبيعية التي ازدهرت في ظل حضارة الاسلام وهي لغة الفلسفة وهي لغة الادب .

بل بفضل الاسلام وحضارته كان المثقفون من أرجاء العالم غير الاسلامي يضطرون الى تعلم اللغة العربية باعتبارها لغة العلم والادب مما دفع بعض ملوك

او انحسر مد اللغة العربية وبقي الاسلام . وقد كان الاسلام المؤثر الاول في الدراسات اللغوية الراقية والمؤلفات اللغوية والادبية المختلفة التي ملأت المكتبة العربية منذ القرن الثاني الهجري كما أن الاسلام هو الذي دفع كثيرا من الباحثين من غير العرب للتخصص في مباحث اللغة العربية وآدابها والكتابة فيها ولاشك أن عبد الحميد الكاتب وابن المقفع وسيبويه ونفطويه وابن العميد والزمخشري وغيرهم من المسلمين غير العرب خدموا اللغة العربية والادب العربي كأحسن ما يخدم صاحب لغة لغته رغم أصلهم غير العربي .

كما أن تبني بعض الشعوب الاسلامية غير العربية للغة العربية حتى عصرنا الحاضر انما يعود الفضل فيه الى الاسلام فاننتشار اللغة العربية في الصومال والسنگال ونيجيريا وموريتانيا وبعض أرجاء ايران وتركيا انما يعود لارتباط شعوب هذه المناطق بالاسلام ولا تزال الامم الاسلامية كلها رغم تركها للغة العربية كلفة أساسية رسمية تستعملها كلغة دينية تتفاوت في فهمها ولا تزال ايران وباكستان ومسلمو الهند يستعملون الاحرف العربية لكتابة لغاتهم القومية .

كما أن قوة اللغة العربية في الاقطار العربية نفسها ترتبط الى حد كبير بالوعي الاسلامي فقد ظهرت فئة من المتأدبين ومنحلي البحث في كثير من أرجاء الوطن العربي يدعون الى هجر اللغة العربية الفصحى واحلال اللهجات العامية محلها في البحث والعلوم والادب وحاولوا الترويج لدعوتهم التي تحمل في ثناياها الامانة التامة للغة العربية وتؤدي الى قطع ماضي اللغة العربية بحاضرها كما يؤدي انتشار اللهجات العامية لو تم - لا سمح الله - الى تقطيع اصرة التفاهم الوحيدة بين شعوب الاقطار العربية وهي اللغة العربية الفصحى اذ ان اللهجات العامية في الشعوب العربية متباينة أشد التباين وانه لاهون على العربي في الاردن وسوريا ومصر والعراق أن يتفاهم مع العربي في الجزائر والمغرب العربي بلغة اجنبية من أن يتفاهما كل بلغة العامية وقد جربت ذلك بنفسي مع عربي من المغرب التقت به مرة في أوروبا وكان لا يحسن الفصحى فلم نستطع اطلاقا أن نتفاهم هو بلغته المغربية العامية وأنا بأردنيتي الا بالفصحى مع القليل مما اعرفه من العامية المغربية .

والذين وقفوا في وجه تيار العامية هم الذين يؤمنون بالارتباط بين اللغة العربية والاسلام والذين روجوا هم الذين يثمنون أن ينسلخ العرب عن الاسلام

مذاهب اجتماعية وسياسية واخلاقية وغنية شتى في المجتمعات الاسلامية كل ذلك يؤثر في الوعي الاسلامي والوازع الديني ، كما ان الاتجاهات الفكرية التي تبدو وكأنها منبثقة فقط من داخل المجتمعات الاسلامية لها أكبر الاثر في التأثير على الاسلام في تلك المجتمعات فحركة مصطفى كمال في تركيا كان لها أكبر الاثر على الاسلام في تركيا بل وفي العالم الاسلامي كله اذ اتجه في محاولته لتطوير تركيا الى دولة عصرية الى محاربة الاسلام وتقاليدہ وقطع علاقة تركيا بالشعوب الاسلامية الاخرى وخاصة العربية وقضى على الخلافة واتجه بتركيا كليا نحو الغرب وحضارته ومثله مع انه كان باستطاعته أن يحضر تركيا ويطورها مع ابقائها اذ ان الطاقة البذولة لصراع الاسلام وهو دين ثابت الجذور عميق الاسس في الشعب التركي ستحول هذه الطاقة من الهدم الى البناء ومن مصارعة الدين الى تنظيمه ومن هنا فشلت تجربة الاتاتوركية في تركيا من عزل هذا البلد المسلم وسلخه عن الشعوب الاسلامية كما فشلت كذلك في تطوير تركيا بأسرع مما تطورت فيه شعوب اسلامية اخرى لم تسلك نفس السبيل .

ومن مثال تركيا يمكننا أن نفهم كثيرا من الحركات السياسية والاجتماعية التي اثرت في المجتمعات الاسلامية .

الا أنه لاينكر تأثير اللغة العربية على الوعي الاسلامي عندما تتوغل عناصر هذا الوعي فان البلاد الناطقة باللغة العربية أقدر على فهم الاسلام لتقدرتها على فهم القرآن والحديث وهما المصدران الاساسيان لتعاليم الاسلام ، أكثر من غيرها من الشعوب التي لا تتكلم العربية . الا انه في نفس الوقت قد يكون في بعض الاقطار الاسلامية غير العربية وعي اسلامي اقوى واشد مما في بعض الاقطار الاسلامية العربية لاسباب اخرى كوجود قيادة اسلامية نوعا ما في تلك الاقطار ولاشك أن باكستان خير مثال على ذلك .

* * *

أما تأثير اللغة العربية بالوعي الاسلامي فهو ولا شك وارد ، والواقع التاريخي للشعوب الاسلامية في الماضي والحاضر يؤكد هذا التلازم بين اللغة العربية والاسلام اذ انه كما سبق وبينت أن اللغة العربية انما سارت وانتشرت في ركاب الاسلام وحلت حيثما حل ثم مضى الاسلام وحده الى كثير من الأرجاء التي لم تتمكن اللغة العربية من اقتحامها

وحتى الجاليات الاسلامية المنقطعة كليا عن العالم الاسلامي جغرافيا كالمسلمين في بعض أرجاء أوروبا وأمريكا يدخلون بحكم تأثرهم بالقرآن والدين كثيرا من الالفاظ العربية التي يشعر المسلم ان ترجمتها لاتؤدي المعنى الدقيق الذي تؤديه مفردات الاصل العربي وعلى قدر نحو تلك الجاليات ومكانتها بالمجتمع تتزايد قدرتها على اشاعة واستعمال امثال تلك التعبيرات .

* * *

أما تأثير اللهجة الاقليمية في التعبيرات العربية المحلية في الاردن فانه بيدولي انه من المقارنة السريعة بين اللهجة الاردنية واللهجات العربية الاخرى ان اللهجة المحلية لسوريا الكبرى التي تضم سوريا والاردن وفلسطين وكذلك الاجزاء الغربية والجنوبية من العراق اقرب اللهجات المحلية للفصحى واكثرها تأثرا وبالتالي تأثيرا فيها الا انني ارى من ناحية اخرى ان هذا الموضوع يحتاج الى دراسة اعمق في بحث مستقل لا يتسع له المقام .

* * *

وفي خصوص المكانة التي يجب ان تحتلها اللغة العربية بالنسبة للغات الاجنبية في الاردن نرى انه مما لاشك فيه ان اللغة العربية هي التي ينبغي ان تكون وحدها لغة الدولة ولغة العلم والتدريس في جميع مراحل الدراسة حتى نهاية الدراسات الجامعية العليا وان تعمل الدوائر العلمية المختصة الى اتمام النقص في هذا الجانب بترجمة جميع مصطلحات العلوم والمعارف والفنون الى اللغة العربية اذ انني اؤمن انه اذا ارادت الامة العربية ان تحقق التقدم الواجب تحقيقه في مجال العلم والمدنية الحديثة لابد ان تكون اللغة العربية فيها هي لغة البحث العلمي ليستطيع كل مثقف ان يساهم في حقله وميدانه بنصيبه من البحث الذي يخدم تطوير المجتمع وحتى يكون العلم النافع في جميع حقول المعرفة ميسرا لكل قارئ في هذه اللغة .

وقد صرحوا بذلك تارة واخفوه تارة ولولا قوة الوعي الاسلامي وتاصل الاسلام بأكثرية الشعب العربي لكان لهذه الدعوات الهادمة نجاح ولادى ذلك الى زوال العربية بالتدرج وقيام لغات محلية تنفصل على المدى البعيد كليا عن اللغة العربية كما حدث بالنسبة للغة اللاتينية التي انقسمت الى لغات اقليمية وقومية لاتفاهم الآن بين المتكلمين بها كالاسبانية والبرتغالية والايطالية .

* * *

ومن المسلم به ان مفردات ومصطلحات اي لغة انما تتكون من مجموع التراث الفكري والحضاري لتلك اللغة وعلى قدر عمق الحضارة وسمعتها وشمولها يكون عمق اللغة المعبرة عن تلك الحضارة ويكون شمولها وسمعتها .

والدين من اهم دعائم الحضارات عامة واهم دعامة قامت عليها الحضارة الاسلامية بصفة خاصة . وقد تبين لنا مما سبق كيف كان دور الاسلام في نشر اللغة العربية وتطويرها وجعلها لغة العلم والادب للمجتمع الاسلامي الكبير .

ورغم ان كثيرا من الاقطار الاسلامية غير العربية تركت استعمال اللغة العربية كلفة رسمية وانصرفت الى لغاتها المحلية الا ان تأثير الدين بالقوم وتأثرهم بالقرآن الكريم الذي يقرأونه ويحفظونه وقد لا يفهمونه جيدا جعل من اللغة العربية والتراث العربي مصدرا أساسيا تستمد منه تلك اللغات المختلفة كثيرا من مفرداتها وتعبيراتها .

ولا يحتاج من يسمع الى اهل ايران وهم يتكلمون الفارسية او الى اهل باكستان وهم يتكلمون الاوروبية لايحتاج السامع اليهم الى ان يكون متخصصا بتلك اللغات ليعرف ان نسبة كبيرة من مفردات هاتين اللغتين من أصل عربي . وقس على ذلك كثيرا من لغات افريقية كاللغة السواحلية والهررية واللغات المحلية في السنغال والصومال ونيجيريا وكينيا وغيرها من الاقطار الافريقية التي تضم نسبة عالية من المسلمين .